صـــــــــور مـــــن المـــــــــاضـــــي

ذكـــريـــات مع يـــوسف العـــاني قـبل اكثـــر من خمـسين عـــامـــا

عـمـــــر دزه يـي *

التقيت به في فينا - عاصمة الموسيقى والحب والجمال والخمر- حيث كنت طالبا في جامعتها ادرس العلوم السياسية بعدما منعني اهلي من دراسة الموسيقى والغناء الكلاسيكى اللذين كنت ولم ازل اعشقهما وامارسهما اليوم كهواية كلما سنحت لي الفرصة. العام كان ١٩٥٧ في خريفه أى قبل اكثرمن نصف قرن من الزمن. وكنا قد اشتركنا في صيف ذلك العام في المهرجان العالمي للشبيبة والطلاب في موسكو دون أن نلتقي هناك بالرغم من كوننا أعضاء في الوفد العراقي نفسه. وكان المهرجان هذا يقام كل عامين في احدى عواصم بلدان المعسكر الاشتراكي بدعم من الاتحاد السوفيتي آنذاك . وفي العام ٥٧ من القرن الماضي احتضنت موسكو المهرجان الخامس وكان بحق اعظم واروع تجمع شبابي رأيته في حياتي من حيث التنظيم ومن حيث كثرة المشاركين الذين اتوا من جميع بقاع الارض ومن جميع الاصناف الأثنية والعرقية. واليوم وبعد مرور نيف وخمسين عاما على هذا الحدث اشعر بقشعريرة غريبة ونوستالجيا للأيام الغابرة كلما تذكرت يوم افتتاح المهرجان في ٢٦ من شهر تموز عام ١٩٥٧ . ففي ذلك اليوم اكتظ ستاديوم لينين الذي يسع لمائة الف متفرج بهذه الجموع البشرية كل وفد بملابسه الشعبية التقليدية ينشدون بصوت واحد نشيدي الطلاب والشبيبة العالميين كل بلغة قومه . وكان الموسيقار الأرمني السوفيتي الشهير آرام خاجاتوريان يقود الأوركسترا وقادة الحزب الشيوعي والحكومة السوفيتية يلوحون بأيديهم للجموع الغفيرة من على الصف الأمامي واتذكر منهم ، ان لم تخني الذاكرة ، نيكيتا خروشجوف ، نيكولاي بولجانين ، المارشال فوروشيلوف ، مولوتوف ، مالنكوف ، اليكسي كوسيغين وغيرهم .

أصدقائي في أيام شبابنا و آخرون من الطلبة والمثقفين العراقيين والعرب في المهجر. ذهبت مع يوسف العاني لمشاهدة المسرحيات و دور الأوبرا وزيارة المتاحف الغنية بالآثار التأريخية والأعمال الخارقة لعباقرة الرسم وقصور القياصرة و مخادع الأميرات بنات الأمبراطورة الشهيرة ماريا تيريزا. وذهبنا الى مدينة الخمور (كرينتسينك) الشهيرة وحانات النبيذ (فاين كيلر- هويريكة) التي هي من معالم فينا ولا يمكن للزائر ان يتغاضى عنها. كماذهبنا الى الريف النمساوي الخلاب وشربنا النبيذ المعتق والعذري في ميخانات مزارع الكرم عل ضفاف نهر الدانوب الأزرق . وذات يوم ذهبنا لمشاهدة اوبرا نابوكو للموسيقار فيردي فغضب العاني على الموضوع الذي اعتبره دعاية للصهيونية وأتذكر كتب مقالة نقدية شديدة اللهجة عن تلك الأوبرا أرسلها الى احدى الصحف العراقية لنشرها. وأثناء اقامته في فينا التي استمرت فترة طويلة ،أجرى عملية جراحية لأحدى عينيه التي كانت تشكو من الحساسية فاهتم به الجراحون اهتماما زائدا عندما علموا بأنه من كبار الممثلين العراقيين وهكذا وكما يرى القارئ العزيز في الصور الفوتوغرافية فانه يضع النظارات القاتمة على عينيه بنصيحة من أطبائه . وحتى في الغربة لم يهمل يوسف العاني التمثيل. فأخرج ومثل بنفسه مسرحيتين من تأليفه و هما مسرحية "ماكو شغل" و مسرحية "فلوس الدوا" . واختار الممثلين من الطلبة العراقيين والعرب بعد أن أجرى معهم التمارين اللازمة لعدة أيام . وكنت أنا من بين ممثلي المسرحية الأولى حيث أسند الي دور بائع بورك متجول يصيح بصوت عال " ياغلي بورك... ربي فؤادك ياولد! " . وعرضنا المسرحيتين في احدى قاعات نادي (روتاري كلوب) الشهير عالميا وكان يقع آنذاك فى ميدان راتهاوس بلاتس المجاور لمبنى بلدية فينا التأريخية كما انني أجرت غرفة لدى امرأة نمساوية فيما بعد بجوار النادي وكان رقم داري راتهاوس بلاتس-٨ . طلب مني كاكه يوسف (أصبحت أدعوه كذا بعد أن توطدت العلاقة بيننا) ذات يوم أن أبحث له عن قصة كردية لكي يكتب لها السيناريو و يجعل منها فلما سينمائيا. فذكرت له في الحال تراجيديا مم و زين الكردية الشهيرة التي كتبها الشاعر الكردي الخالد أحمدي خاني قبل أكثر من ٣٥٠ سنة . فأعجب بها أبو يعكوب وأختارني لأقوم بدور بطل القصة ، مم ، ولكن تبدل الظروف بعد ثورة تموز وعودته الى العراق وانقطاعنا عن بعض لمدة طويلة حال دون تحقيق المشروع .

أتذكر يوما بكي فيه يوسف العاني بحرارة على فقدان صديق عزيز له . سعدي جلال المحامي كان شقيق الفنان المسرحي والسينمائي العراقي المرحوم ابراهيم جلال . سافر المرحوم سعدي الى ألمانيا للمعالجة فوافاه الأجل هناك في احدى مستشفياتها . أتذكر احدى الأمسيات كنا نحتسي الخمر في مقهى شفارتز ويوسف العاني يبكي ويلطم جبينه من شدة التأثر . كما أتذكر انه كان يؤنب بشدة صديقنا منذرجلال (شقيق المرحومين سعدي وابراهيم) والذي كان طالبا في ألمانيا حينذاك ، يؤنبه على ماكان يقال ، عن غير حق باعتقادي ، عن اهماله لشقيقه الراقد في المستشفى . والأخ منذر لا يزال يعيش في فينا ولي معه ذكريات طيبة .

هذه بعض ذكرياتى الجميلة مع الفنان الكبير يوسف العاني . ذكريات عمر الشباب. عاد يوسف العاني الى بغداد ولم نلتق فيما بعد الا بعد مرور حوالي١٦ سنة ، في شهرآذار ١٩٧٤ . آنذاك كنت ملحقا صحفيا ومترجما في السفارة العراقية بفيناحيث تلقيت دعوة من المدير العام للأذاعة والتلفزيون العراقي (السيد محمد سعيد الصحاف آنذاك) لزيارة بغداد لأحياء بعض الحفلات الغنائية بمناسبة أعياد نوروز و احياء ذكرى اتفاقية آذار . والظاهر ان كاكه يوسف كان بدوره على موعد مع السيد الصحاف فالتقينا لبرهة قصيرة في مكتب سكرتيرة المدير العام وكان هذا أول لقاء بيننا بعد أيام فينا الغابرة وأتمنى ان نلتقي فيما بعد وبكثرة وأنا الآن في بغداد لفترة ما . كلي أمل ان يهب الله فناننا العظيم يوسف العاني الصحة و العافية والعمرالمديد لخدمة شعبنا العراقي الصامد الذي وهب الفنان عمره لأسعاده.

*عمر دزه يي مستشار سياسي لرئيس الجمهورية ، فنان وأديب وصحفي كردي ، مدير اذاعة صوت أمريكا- القسم الكردي في واشنطن سابقا

لزيارة بعض جمهوريات الاتحاد السوفيتي قبل عودتها الى بلدانها. رجعت انا الى مقرسكني في فينا وبعد مرور اشهر عدة بدأ العراقيون الذين لم تواتهم الفرصة للعودة الى الوطن يظهرون في فينا بين فينة واخرى قادمين من ألمانيا الشرقية أو جيكوسلوفاكيا أو بقية البلدان الاشتراكية ، مفضلين التريث لفترة ما اذ كانت السلطات العراقية قد زجت بعدد من العائدين منهم في السجون بعد أن اكتشف أمرهم بانهم كانوا من المشاركين في مهرجان موسكو الممنوع آنذاك . وكانت غالبية العراقيين الذين تعرفت عليهم في فينا من النخبة المثقفة من فنانين وشعراء وأدباء وصحفيين بارزين أمثال يوسف العاني و لطفي بكرصدقي وعبد الوهاب البياتي وخلوق أمين زكي وآخرين لا اتذكر اسماءهم.

كان الطلبة العراقيون الذين يتلقون العلم في جامعات ومعاهد فينا من الناحية الفكرية صنفين ، يساريين وقوميين عرباً (ناصريين وبعثيين). وكان كل من هاتين المجموعتين قد اختارت لنفسها مقهى قرب مبنى الجامعة يترددون اليها بعدالانتهاء من المحاضرات وفي أيام العطل . شفارتزشبانير كانت مقهى اليساريين وتقع في شارع يحمل الأسم نفسه في بداية المنطقة التاسعة على بعد خطوات من جامعة فينا الشهيرة. جدير بالذكر أن الموسيقار بيتهوفن كان قد سكن في الطابق الذي يعلو المقهى وكان هذا آخر مسكن له اذ توفي هناك في العام ١٨٢٧, ويجد الزائراليوم لوحة برونزية فوق المقهى تحمل تمثال رأس الفنان العظيم كتب عليها يوما ميلاده ووفاته. وكم كانت خيبتي عندما زرت فينا في الصيف المنصرم وذهبت في الحال الى مقهى شفارتز (هكذا كنا نسميها لتسهيل التلفظ) لأستعيد الذكريات ، فلم أجد سوى مكتب تجاري يقوم مكانه.

وبعد الأستئذان من صاحب المتجر وشرحي له ذكرياتي و شجوني المرتبطة بهذه الدار منذ نصف قرن من الزمن ، أدرت بنظري المبهوت في جميع جوانب الجدران الداخلية فتعرفت على قسم لم تنله يد التغيير ولمست الجدار بكفي يدي بكل رفق و حنان كأني أمسح جبين عزيز فقدته للتو . وتذكرت قول شاعرالجاهلية " أمر بديار ليلى وأقبل ذا الجدار وذا الجدارا...وما حب الديار شغفن قلبى ولكن حب من سكن الديارا ".

كم موعد غرام كان لي هنا مع حسناوات وغزالات فينا و رحم الله الشاعر الذي كتب هذه الكلمات والفنانة العظيمة ذات الصوت الملائكي أسمهان في الأغنية الخالدة "ليالي الأنس في فينا ، نسيمها من هوا الجنة" . وتركت المكان بتردد وبخطى بطيئة والدمع منحسر في مقلتي. أما الطلبة القوميون العرب وقلة من البعثيين فقد اتخذوا من مقهى غلوريا في بداية المنطقة الثامنة والقريبة ايضا من الجامعة مقرا وملتقى لهم.

لكوني أيضا فناناً وكاتب أغان فقد أعجبت بالفنان الكبير يوسف العاني وأنا شاب يانع في الصف الخامس الثانوي بمدرسة الأعدادية المركزية ببغداد في العام الدراسي ٥٤-٥٥من القرن الماضي وكان مديري آنذاك الأستاذ علاءالدين الريس رحمه الله ، و ياأسفي على بغداد ذلك الزمن. وكم كان حلمي كبيرا أن ألتقي بيوسف العاني في يوم ما لأنقل اليه شعوري واعجابي بعبقريته وفنه الخلاق. لسبب أو لآخر، لم يحصل ذلك لا في بغداد ولا في موسكو ولكن شاءت الأقدار ، ونعم المصادفة ، أن نلتقي في بلد الجمال والحب والحياة الحلوة ، فينا. كان ذلك في خريف عام ١٩٥٧ . بعد مشاركته في مهرجان موسكو كان يوسف العاني قد سافر الى ألمانيا الشرقية اذ كان من أشد المعجبين بمسرحيات برتولد بريخت . و بعد قضاء فترة وجيزة هناك شد الرحال الى فينا أسوة ببقية المثقفين العراقيين الذين انتهى بهم المطاف الى عاصمة الجمال أمثال الكاتب القصصي ذا النون أيوب ألذى عاش ومات فيها . في ذات يوم ولمفاجأتي السارة ، ظهر يوسف العاني مع شلة من أصدقائي العراقيين في مقهى شفارتز. الى الآن أتذكر تلك اللحظة التي التقيت فيها به وجها لوجه فشعرت بلون و تقاطيع وجهي تخونني وأنا أتحدث الى هذا الأنسان العظيم . وبعد جلسة هادئة ومع بقية الأصدقاء بدأت أحس بأنني لست امام فنان عظيم فحسب ، بل امام انسان لا يمكن للمرء الا ان يحبه و يخصص له ركنا خاصا (في آي بي) في ثنايا قلبه في أول مرة يتعرف عليه. وكم كان أملي أن تتطور علاقتي به الى مستوى الصداقة ، وكان كذلك . فأبو يعكوب علاوة على كونه فنانا اصيلا من دون رتوش فهو انسان ذو ثقافة عالمية عالية، سهل المعشر، بسيط متواضع في حياته و تعامله مع الغير، حاضر البديهة ، شخصية تجذبك اليها ولن تشعر بالملل بل تتمنى ان يطول الحديث معها ولا ينتهي . يوسف العاني يتحدث اليك بلهجة بغدادية جميلة ولا يخلو حديثه من نكات عراقية تقوم بدور موسيقى الأنترميتزو في كونتشيرتو أحاديثه .

وتصادقناصداقة حميمة . كنا شلة من المثقفين منهم المرحوم مالك الياسري (صديق عمري وشبابي ومابعد شبابي) والمرحوم الدكتور حسن الجرجفجي (الوجودي) والصحفي المعروف المرحوم لطفي بكرصدقي الذي كان يكتب في صحيفة صوت الاحرار الوطنية و الشاعر الكبير المرحوم عبدالوهاب البياتي و المخرج الفنان فيصل الياسري الذي يسكن القاهرة حاليا ، على ما أعتقد ، و عبدالباري الشيخ علي الذي مازال في فينا وكلاهما من

ذهبت الى موسكو بترشيح من صديقي ورفيقي في الدرب منذ نهاية الأربعينيات من القرن الماضي مام جلال طالباني ، رئيس الجمهورية العراقية الحالي ، حيث كنا التقينا في بغداد في ربيع عام ١٩٥٧ قبيل سفري الى فينا . وكان هو عضوا في اللجنة المركزية للحزب الديمقراطي الكردستاني (البارتي) ولا أدري ان كان عضواً في المكتب السياسي آنذاك أم لا، وأنا كنت من الموالين للحزب وعضو في اتحادي طلبة وشبيبة كردستان.

ناولني مام جلال وثيقة مطبوعة تحمل شعار و ختم اتحاد طلبة كردستان تخولني ان أكون ممثل الأتحاد في النمسا كما طلب مني ان اشارك في المهرجان ذاهبا اليه من فينا على امل ان نلتقي في موسكو وهو قادم سرا من بغداد.

وهكذا كان و جمعنا الوفد العراقي المؤلف من عراقيين قادمين من الوطن ومن الذين يعيشون في الخارج مثلي . بعد نهاية المهرجان في العاشر من شهر آب ١٩٥٧ عادت الوفود الى اوطانها الا عدد منها التي ذهبت